

# سبل التربية والتعليم

## عند علماء المغرب

ميهمون باريش\*

### مقدمة:

إن المتأمل عن وعي وبصيرة في واقع الأمة الإسلامية في الآونة الأخيرة بخاصة، يدرك ابتداء لماذا الاهتمام بهذا الموضوع، وفي هذا الوقت بالذات. فقد بات اليوم واضحاً للعيان، وأكثر من أي وقت مضى، أن التيار العلماني العالمي المنظم يقود حملة شرسة محمومة على المناهج الدينية في التربية والتعليم؛ وذلك بالسعي الدؤوب نحو تغيير مناهج التربية الدينية، وإقصاء الخييين من أهل الاختصاص وإبعادهم عن محيط المؤسسة التعليمية والتربوية، من أجل استبدالهم بأناس من أهل الأهواء ممن لا يرقب في الأمة إلا ولا ذمة، وتشجيع التعليم المختلط بين الجنسين، هذا فضلاً عن الجهود التي تبذل هدرأ لتذليل كل العقبات التي من شأنها أن تعترض هذا المشروع التخريبي؛ والهدف من ذلك كله يتمثل في قطع الصلة بالجزور التاريخية للأمة المحمدية، وصياغة التعليم في البلاد الإسلامية صياغة علمانية حدثية بعيدة عن مؤثرات القرون الوسطى الظلامية، وتجفيف منابع التدين التي يتربى في أحضانها الإرهاب الأصولي على حد زعمهم<sup>(١)</sup>.

غير أن تاريخ الأمة الإسلامية يشهد أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ومن ثمة كان الرجوع إلى التربية الإسلامية

\* أستاذ محاضر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب.

القديمة للاسترشاد بها، أمراً لا بد منه لأي مشروع إصلاحي شامل لقطاع التربية والتعليم.

ولقد كانت هذه القناعة المبررة عندنا أصلاً في صرف الهمة إلى هذا الموضوع؛ ولكي نكون أكثر دقة وواقعية، فقد وقع اختيارنا على كتاب «آداب المعلمين» الذي يُعد من الكتب التراثية المغربية المهمة التي اعتنت بموضوع التربية والتعليم ببلاد المغرب في وقت مبكر، وهو عبارة عن آراء وفتاوى واقتراحات لرجلين عرفنا بحمل مشعل العلم والدين في هذه الديار، وهما: الإمام العلامة، فقيه المغرب، أبو سعيد عبد السلام بن حبيب سحنون (ت ٢٤٠هـ) الأب، وابنه فقيه المغرب أبو عبد الله محمد بن سحنون (ت ٢٦٥هـ).

والجدير بالذكر أن الرجلين معاً لم يكونا من المغمورين المنسيين، وإنما كانا من المشاهير الذين ذاع صيتهم ليس في المغرب فحسب، بل في العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً؛ ولم يكونا من المتعالمين، وإنما كانا من العلماء الموسوعيين الذين امتلكوا ناصية العلوم المختلفة من وسائل ومقاصد، كما أنهما لم يكونا من الوصوليين الذين يصلون إلى الدنيا بالدين، ولا من أصحاب الأقلام المأجورة، وإنما كانا من العلماء الربانيين العالمين العاملين... وتراجم الرجلين تؤكد هذه الحقائق وزيادة.

فأما سحنون الأب (ت ٢٤٠هـ)، فقد عمّر ثمانين سنة، لازم في معظمها شيوخ المالكية حتى صار من نظرائهم، وساد أهل المغرب في تحرير المذهب، وانتتهت إليه رئاسة العلم، وعلى قوله المعول بهذه الديار، وتفقه به عدد كثير من الفقهاء. وقيل عنه: إنه اجتمعت فيه خلال قلمها اجتمعت في غيره، ومنها: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والسماحة عند المقدر، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملابس والمطعم، ولم يكن يهاب سلطاناً في حق، وكان شديداً على أهل البدع؛ فلذلك كله انتشرت إمامته، وأجمع الناس على فضله<sup>(٢)</sup>.

وأما ابنه محمد سحنون (ت ٢٦٥هـ)، فلم يكن أقل شأناً من والده، فقد تفقه بأبيه، وورث منه الصفات العلمية والخلقية سواء بسواء، فكان أشبه شيء بأحوال شيخه سحنون في صدقه وشرفه ونبله، وزهادته، وملبسه ومطعمه، وسعة علمه وفرط نكائه، ونصرته للحق وكثرة مناقبه. وتذكر كتب التراجم أنه بلغ - على حداثة سنه - شأناً عظيماً في العلوم حتى إنه أُلّف في علوم مختلفة كتباً كثيرة، وهي نحو مائتي كتاب في العلوم والمغازي والتواريخ وغيرها<sup>(٣)</sup>.

أما كتاب «آداب المعلمين» فهو من تأليف سحنون الابن، غير أن مؤلفه وشَّحه بأقوال نفيسة، وآراء دقيقة، واستنباطات عجيبة لسحنون الأب، وأحياناً بآراء مالك وابن القاسم، وبعض علماء المذهب من أهل الأندلس وغيرهم. وفي عرضه لهذه المادة العلمية الدسمة يستعمل المؤلف الأسلوب المعبر عن طريق التحمل والأداء.

وبالجمله، فالكتاب أنموذج علمي دقيق في الدرس البيداغوجي، وهو كتاب جليل الفائدة، وأثر من الآثار القيِّمة في مجال التعليم والتربية؛ إذ هو مزيج من الآراء والفتاوى، ووجوه الاستنباط والاستدلال، والتعليل والترجيح، تأصيلاً للعملية التربوية في ضوء الأحكام الشرعية، «وميزة الكتاب، أنه كان رائد الكتابة المستقلة في موضوع التربية»<sup>(٤)</sup>. وحقيقة الأمر أن هذا الكتاب، كان له أثر واضح في كتب الخلف من أهل المغرب، ومنها على سبيل المثال:

- كتاب «الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين»، لمؤلفه أبي الحسن علي بن محمد القابسي (ت ٤٠٣هـ).

- كتاب «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله»، لمؤلفه أبي عمر بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ).

- كتاب «جامع جوامع الاختصار والتبيين فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان»، لمؤلفه محمد بن أبي جمعة المغراوي (ت ٩٢٩هـ) الملقب بشقرون.

- كتاب «القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم»، لمؤلفه الحسن بن مسعود اليوسي (ت ١١٠٢هـ).

- «منظومة سراج طلاب العلوم في آداب طلب العلم والتعلم والتعليم»، وهي منظومة تربوية لعالم مغربي من علماء القرن الثاني عشر، وهو العربي بن عبد الله المستاري (كان حياً سنة ١١٩٩هـ)، وقيل إنه توفي سنة ١٢٤٠هـ.

- كتاب «شرح الابتهاج بنور السراج»، وهو شرح للمنظومة السابقة، لأحد علماء فاس، وهو أحمد بن المامون البلغيثي.

ولاشك في أن نظرة أولية في هذه المؤلفات تكشف عن حصول هذا التأثير إما بطريقة مباشرة مثلما حصل لأبي علي القابسي الذي اعتمد على كتاب سحنون كثيراً، نقلاً عنه، واسترشاداً به، وترسماً لخطاه؛ إذ «بالرجوع إلى نص الكتاب، نجد أن ما نقله القابسي

عنه يكاد يكون بلفظه في بعض المواضع، وباختلاف يسير في مواضع أخرى، كحذف السند عن رأي فقيه، أو تغيير في العبارة دون إخلال بالمعنى»<sup>(٥)</sup>. وقد يكون التأثر بطريق غير مباشر، ولا سيما إذا تعلق الأمر بمنهج عرض موضوعات تُعد من الجوامع المشتركة بين هذه المؤلفات جميعها: كآداب المعلم وأخلاق المتعلم، ومراتب العلوم التي ينبغي أن تتعلم...

### أهم السبل التربوية عند علماء المغرب:

لا يملك الدارس لكتاب محمد بن سحنون القيرواني إلا أن يقر منصفاً أن القضايا التربوية التي يعالجها هذا السفر التراثي القيم تكاد تكون من قضايا عصرنا، وهي قضايا أساسية في تنمية الموارد البشرية بدءاً بتربية الناشئة، وأهمها ما يأتي:

#### السبيل الأول: لا تعليم بغير معلم كفاء:

بُوب الإمام البخاري باباً حديثياً سماه: باب العلم قبل القول والعمل، وهذا تنبيه منه إلى أن التربية والتعليم، والتبليغ والامتنال، لا يُعتد بشيء من ذلك كله إلا إذا تقدمه علم محكم، لما يترتب على إحكام العلم من إحكام القول وصحة العمل، ومن ثمة فإن النتيجة الضرورية بضرورة البرهان أن الطريقة الصحيحة لفهم العلوم وتحصيلها والتمكن منها وتمثلها، هي الأخذ المباشر عن المعلم الكفاء، وإلا كان الخلط والاضطراب، والاختلال في المعاني والمباني، وربما كان الفساد الخلقي، ومن هنا وجب على معلم الناس الخير أن يجمع بين العلم والعمل، وبين بعد النظر وحسن السيرة؛ «وقد جرت العادة أن يكون معلم الكتاب، من الذين يحفظون القرآن، والعلوم الدينية والفقهية، فهو فقيه أتم تعليمه على شيخه، وأخذ منه إجازة بالتعليم»<sup>(٦)</sup>. ولا يكفي في المعلم أن يكون عالماً متخليقاً فحسب، بل يشترط فيه أن يكون ممن يأخذ أمر التعليم والتربية بحزم وجدية، وإلا صار معدوداً في عداد المجروحين المتروكين، ولا سيما إذا كان المعلم يتقاضى أجراً معلوماً مقابل خدماته التعليمية، فإذا كان بهذه الحال، ثم تهاون في أداء رسالته التربوية، سقطت شهادته، ورُدَّت روايته؛ لأنه غير مؤدٍ لما يجب عليه<sup>(٧)</sup>؛ وأما إذا لم يكن يتقاضى أجراً معلوماً، غير أن تعليم الناس صار في حقه فرضاً عينياً، فكفى به إثماً أن يضيع عقولاً تتوق إلى أن تتعلم مما علمه الله عز وجل. ويشترط في المعلم أيضاً أن يكون عفيفاً قنوعاً يتورع عن استغلال المتعلمين مادياً ومعنوياً، فلا ينبغي أن يحملهم على الهدية وما شابهها، ويرغمهم على ذلك، وإلا وقع في المحذور، يقول العلامة المالكي ابن سحنون القرطبي: «ولا يحل للمعلم أن

يكلف الصبيان فوق أجرته شيئاً من هدية وغير ذلك، ولا يسألهم في ذلك، فإن أهدوا إليه على ذلك، فهو حرام»<sup>(٨)</sup>. وإذا كان طلب الهدية عادة مستقبحة، وعرفا مذموما ينبغي للمدرس أن يتورع عنها، فإنه لا يجوز له أيضاً أن يستعملهم في قضاء أغراضه الشخصية، وفي هذا يقول سحنون: «ولا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجهم»<sup>(٩)</sup>؛ ليس هذا فحسب بل إن من مظاهر كفاءته أيضاً أن لا يكون ميالاً إلى بعض المتعلمين دون بعض، بل يجب عليه أن يكون عدلاً منصفاً، يأخذ بمبدأ تكافؤ الفرص، وإلا كان من الظلمة، وفي هذا يقول ابن سحنون «وليجعلهم بالسواء في التعليم، الشريف والوضيع، وإلا كان

### السبيل الثاني: الدمج بين التعليم والتربية:

لقد شاءت حكمة الله -تعالى- أن يكون أول إنسان على وجه البسيطة تحمل مسؤولية الخلافة نبياً مرسلأً، والنبوة تمثل أعلى مراتب التفكير البشري من جهة، وأسمى مراتب العدالة الإنسانية من جهة ثانية. وإذا كانت الغاية الوجودية للإنسان هي الخلافة عن صاحب الشرع في الأرض، فإنه لا بد له من الجمع بين العلم النافع، والعمل الصالح، وإلا كان الفساد وسفك الدماء. من هنا كانت الضرورة داعية إلى وجوب الدمج بين التعليم والتربية، بين الحفظ والفهم والامتثال، فلا خير في علوم مجردة لا تنفع، ولا خير في علوم لا تترتب عليها فائدة للأمة، قلّت أو كثرت، في العاجل أو الآجل، ولا خير في استقامة أو عدالة عرية عن العلم في الجملة، وقد صدق الصادق الأمين إذ قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»<sup>(١١)</sup>.

وما أروعها من كلمة نطق بها الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه وأرضاه إذ قال: «لقد سمعت من سبعين شيخاً أتقرب إلى الله بأدعيتهم، لا أروي عن أحد منهم حديثاً»<sup>(١٢)</sup>. وإنما قال هذا، لأنهم كانوا أهل سلامة لا تؤمن غفلتهم، وإن قويت ديانتهم<sup>(١٣)</sup>؛ بل أكثر من ذلك فإن الإسلام لا يكتفي بالتربية والتعليم فحسب، بل يتعداهما إلى أسلوب أعمق وأعظم من التعليم والتربية، إنه أسلوب التزكية المقرونة بالحكمة، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(١٤)</sup>. فالعلاقة بين التربية والتعليم علاقة أشبه ما تكون بعلاقة اللازم بالملزوم، والفصل بينهما خراب ودمار. وقد جاء في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلَّمُونَ الْكِتَابَ﴾؛ وفي قراءة أخرى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلَّمُونَ الْكِتَابَ﴾<sup>(١٤)</sup>؛ وفي قراءة ثالثة: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلَّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

فالتربية تبعاً لهذه القراءات الثلاثة ترتبط بالعالم والمعلم والمتعلم، وأيضاً بلحظات التعليم<sup>(١٥)</sup>، ولم لا يمكن التعليم الذي هو المؤسسة التربوية الممتدة من الكتاب إلى المرافق الجامعية؛ «وقد جمعت التربية الإسلامية منذ أول ظهور الإسلام بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقويم الجسم، فهي تعنى بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية دون تضحية بأي نوع منها على حساب الآخر»<sup>(١٦)</sup>.

في ضوء المسلمات السالفة الذكر، وهي مسلمات شرعية وتاريخية وحضارية، صنّف فقيه المغرب محمد بن سحنون المالكي كتابه «آداب المعلمين» وقد بدأه بالتنصيص على ضرورة تعليم القرآن الكريم، باعتباره مصدر المسلمين الأول في العقيدة الصحيحة، والتشريع الشامل، والسيرة الحسنة؛ إذ بعد البسملة مباشرة، أورد باباً بعنوان: ما جاء في تعليم القرآن العزيز<sup>(١٧)</sup>، وقد وشّحه بنصوص شرعية عدة في الحث على تعليم القرآن الكريم وتعلمه، ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»<sup>(١٨)</sup>. فكان التعليم بذلك وسيلة إلى فهم الدين الفهم المتين. ولا يكفي المعلم بتحفيظ القرآن فحسب، بل يجب عليه أن يصرف هم التلاميذ إلى العلوم النافعة، ولا سيما العلوم التي تمكنهم من فهم القرآن الكريم والعمل به، يقول سحنون «وينبغي له أن يعلمهم إعراب القرآن، وذلك لازم له، والشكل والهجاء، والخط الحسن، والقراءة الحسنة، والتوقيف، والترتيل، يلزمه ذلك»<sup>(١٩)</sup>. ثم بعد ذلك يجب عليه أن يصرف هم التلاميذ إلى الفرائض والسنة الشرعية وإلى تعلم كل ما من شأنه أن يقيم دينهم وما يلزمهم لإظهاره، يقول سحنون «وينبغي أن يعلمهم دينهم الذي تعبد الله به، وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم»<sup>(٢٠)</sup>.

فإذا علمهم القرآن والسنة وعلومهما، جاز له أن يتطوع ليعلمهم بعض العلوم التكميلية التي تميل إلى الترفيه، كالشعر غير الفاحش، والخط الحسن، والزخرفة العربية، وليس ذلك بواجب عليه؛ وكان المصنف ينص هنا على المواد البديلة عن الموسيقى والغناء والرقص والتصوير، وغيرها من العلوم التي لا تنفع، ولا ينبغي للمعلم أن يهدر جهده معها ولا أن يجزي وقت التلاميذ فيها، وفي هذا المعنى يقول أيضاً: «ولا أرى أن يعلمهم ألحان القرآن، [لأنه لا يجوز]، ولا أرى أن يعلمهم التحبير؛ لأن ذلك داعية إلى الغناء وهو مكروه، وأن ينهى عن ذلك بأشد النهي»<sup>(٢١)</sup>، ثم يقول: «وسمعت سحنون يقول: لا أرى للمعلم أن يعلم أبا جاد... ولا أرى لأحد أن يكتبها، فإن ذلك حرام»<sup>(٢٢)</sup>.

وبموازاة مع عملية التلقين والتعليم يجب على المعلم - في نظر فقهاء السلف - أن يتولى أمر التربية والتأديب، يقول سحنون: «وليعلمهم الأدب فإنه من الواجب عليه النصيحة لهم وحفظهم ورعايتهم»<sup>(٢٣)</sup>. فيجب عليه أن يسلك السبل الصحيحة في التربية ترغيباً وترهيباً وعقوبة فعلية، كل ذلك لبناء الشخصية السوية، فيبدأ بالنصح والإرشاد، ثم التأنيب على انفراد، ثم التقريع على رؤوس الأشهاد، ثم الضرب آخر الأمر إذا اقتضت الضرورة ذلك؛ غير أن العقوبة بالضرب ينبغي أن تكون على منفعة المتعلم، وأن لا تكون حالة غضب أو انتقام، وأن يكون التأديب مأموناً، فلا يجاوز بالأدب ثلاثاً في بعض الحالات، ولا يجاوز عشرة في بعضها الآخر، ولا يجوز له أن يضرب رأس الصبي، ولا وجهه<sup>(٢٤)</sup>.

هذا ما ينبغي أن يكون عليه أمر تربية فلذات الأكباد وتعليمهم، وهذا ما كان عليه الحال في العصور السالفة. أما في زماننا فقد انفصل التعليم عن التربية إلى حدٍ فقد معه التعليم صبغته الإنسانية، واكتسى صبغة آلية مجردة، فكان ما كان من العبث والانحلال وضعف التحصيل في صفوف التلاميذ ذكوراً وإناثاً، وعجزت المؤسسات التربوية عن أداء رسالتها الدينية والحضارية، وعن تخريج فوج تُشَمُّ منه، على الأقل، رائحة الصحابة أو التابعين، أو الأئمة الأعلام في ورعهم وأخلاقهم ونبوغهم العلمي، وإلى الله المشتكى.

#### السبيل الثالث: ضرورة إدماج التلميذ في محيطه الاجتماعي والاقتصادي:

الأمر الذي لا يختلف فيه اثنان أن إدماج التلميذ في محيطه الاجتماعي والاقتصادي لا يتحقق إلا بتنمية مواهبه، وتكوين شخصيته بما يناسب متطلبات عصره، وتعليمه كيفية أداء أدواره الاجتماعية، والتفاعل مع بيئته... وقد ألقى علماء المغرب المسؤولية على عاتق المعلم في ذلك؛ إذ ينبغي للمعلم أن يعلم تلامذته بعض العلوم التي تؤهلهم للانخراط في محيطهم إذا آنس منهم رغبة في ذلك، وفي هذا يقول ابن سحنون: «ولا بأس أن يعلمهم الخطب إن أرادوا»<sup>(٢٥)</sup>، ولا شك في أن تعلم فن الخطابة، وسيلة من وسائل الاندماج في المحيط الاجتماعي... ويقول أيضاً: «ولا بأس أن يجعل للتلاميذ عريفاً منهم إذا ختم وعرف القرآن، وكان مستغن عن التعليم»<sup>(٢٦)</sup>، ففي هذا الصنيع تنمية لمواهب التلميذ وإبراز لعبقريته، وتدريبه على مهمة التدريس... ويقول كذلك: «ولا بأس أن يأذن للصبي أن يكتب إلى أحد كتابا أو رسالة»<sup>(٢٧)</sup>، وكتابة الكتب والرسائل وتحرير العقود والوثائق سبيل من السبل المشروعة للكسب... ويقول أيضاً: «وينبغي أن يعلمهم الحساب، وليس ذلك بلازم له، إلا أن يُشترط ذلك عليه»<sup>(٢٨)</sup>، ومعلوم أن الحساب وسيلة من وسائل الكسب والمعاش والعمران.

#### السبيل الرابع: ضرورة تعليم المرأة:

لم يكن تعليم المرأة أو مجرد الاعتراف لها بهذا الحق بدعاً من القول أو الفعل في الإسلام، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أول من سعى إلى تعليمها قصد إشراكها في بناء المجتمع المسلم وإقامته، ولاسيما بعد أن آتس من النساء رغبة في ذلك، فقد ثبت في السنة الصحيحة في ما يرويه أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت - وفي رواية عند الإمام البخاري: قالت النساء -: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله. قال: اجتمعن يوم كذا وكذا. فاجتمعن، فاتاهن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فعلمهن مما علمه الله»<sup>(٢٩)</sup>، وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه<sup>(٣٠)</sup>. وفي مستدرک الحاكم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) طلب من الشفاء بنت عبد الله العدوية أن تُعلم حفصة أم المؤمنين رقية النملة<sup>(٣١)</sup>، وفي رواية أنه قال لها: «الأثعلمين هذه - يعني حفصة - رقية النملة كما علمتها الكتابة»<sup>(٣٢)</sup>.

ولقد كان هذا الصنيع النبوي مستنداً لعلماء السلف للدعوة إلى إيلاء قضية المرأة العناية اللازمة في تربيتها وتعليمها، ومن هؤلاء الإمام أبو الحسن علي القاسبي (ت ٤٠٣ هـ) الذي شدد على ضرورة تعليم المرأة؛ لأن ذلك من دينها ودنياها، وفي هذا يقول: «وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم، فهو حسن ومن مصالحتها»<sup>(٣٣)</sup>. ولقد علل هذا المذهب بكون المرأة مكلفة كالرجل، لها ما له وعليها ما عليه، إلا في الأقل، فكيف لا تُعلم الخير، وما يعينها عليه<sup>(٣٣)</sup>، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. غير أنه وإن كانت المصلحة تقتضي تعليم المرأة ما ينفعها في الدين والدنيا، فإن تعليمها في نظر علماء الأمة محفوف بالمخاطر، لما فيه من الإضرار بمصالحها؛ لذا وجب النظر فيما يُلَقَّن لها من المعارف فلا ينبغي أن تتعلم إلا ما يُرَجى لها صلاحه، ويؤمن عليها من فتنه، وأما ما خيف عليها منه، فصرفها عنه أفضل لها، وأوجب على متولّي أمرها<sup>(٣٤)</sup>. مثلما يجب النظر إلى محيط التلقي، فإن كان فيه ما يسيء إليها، ومن شأنه أن يفسد عليها خلقها، كاختلاطها بالذكور مثلاً، وجب اتخاذ التدابير المناسبة لتعليمها منفصلة عن الفتيان؛ وذلك حرصاً على صلاح الصبيان وحسن نظرهم، وعلى صلاح البنات وحسن نظرهن، وفي هذا يقول

فقيه المغرب أبو سعيد عبد السلام سحنون (ت ٢٤٠ هـ): «وأكره للمعلم أن يعلم الجوّاري، ويخلطهن مع الغلمان؛ لأن ذلك فساد لهن»، وفي بعض نسخ الكتاب: «لأن ذلك فساد لهم»<sup>(٣٦)</sup>.

هذا قول يقال في القرن الثالث للهجرة، والمتعلمون صغار وهم من أهل الفطرة، والتعليم تعليماً إسلامياً أصيلاً، فما بال تعليم القرن الخامس عشر، والتلاميذ كبار، والبرامج دخيلة، والعصر عصر الفتنة والفوضى الأخلاقية.

### خاتمة:

لقد كانت رسالة التربية والتعليم منذ فجر الإسلام وجهاً من أوجه الدعوة إلى الله تعالى، وسبيلاً من سبل بناء الشخصية السوية الفاعلة في الأمة، وإعداد الشخصية القادرة على تحقيق غاية الإنسان الوجودية التي هي الخلافة، بما تحمله هذه الكلمة العامة والمطلقة من معاني العبودية لله تعالى، وحراسة الدين، وتعمير الأرض، وسياسة الدنيا؛ لذا دعا علماء السلف من أهل المغرب والمشرق، إلى إيلاء قضية التربية والتعليم العناية التامة سواء تعلق الأمر بالمعلم أم بالمتعلم، أم ببرامج التعليم أم بالمؤسسات التعليمية.

وإذا كانت الأمة الإسلامية في زماننا قد فرض عليها الدخول في حلبة الصراع من أجل البقاء والاستمرار، فإن ذلك يحتم عليها العودة من جديد إلى ماضيها تستهدي به في تنمية مواردها البشرية لبناء حاضرها واستشراف مستقبلها؛ إذ إن صلاح آخر هذه الأمة لن يكون إلا بما صلح به أولها.

## الهوامش

- (١) سورة الجمعة: الآية ٢.
- (٢) سورة آل عمران: الآية ٧٩.
- (٣) انظر افتتاحية العدد ١٧٠ من مجلة البيان التي تصدر عن المنتدى الإسلامي بلندن (شوال ١٤٢٢ هـ).
- (٤) انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج ٢، ص ٥٨٥، وما بعدها، (تأليف القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي) (ت ٥٤٤ هـ)، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت؛ وانظر: سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٦٣، (تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي) (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط بمشاركة محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ).
- (٥) انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج ٤، ص ٤٦١، وانظر: سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٦٠-٦٤.
- (٦) الحضور الإسلامي في مجال التربية، ص ٧، (تأليف الدكتور مصطفى بن حمزة، مكتبة الطالب وجدة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م).
- (٧) التربية في الإسلام، ص ٥٧، (تأليف الدكتور فؤاد الأهواني، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٢ م).
- (٨) التربية في الإسلام للدكتور فؤاد الأهواني، ص ١١، (مصدر سابق).
- (٩) آداب المعلمين ص ٣٥٥، (تأليف محمد بن سحنون القيرواني) (ت ٢٦٥ هـ)، تحقيق الدكتور فؤاد الأهواني، ملحق بكتابه: التربية في الإسلام).
- (١٠) المصدر السابق، ص ٣٥٦.
- (١١) المصدر نفسه، ص ٣٥٩.
- (١٢) نفسه، ص ٣٦٠.
- (١٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، وضعفه، باب أخذ الحديث من الثقات، وأخرجه الطبراني في الكبرى ترجمة، باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث، وجمع الحافظ ابن عبد البر طرقة في التمهيد، آخر باب بيان التدليس ومن يقبل نقله، وأورده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/٥٤٦، (مكتبة المعارف، الرياض، طبعة ١٩٩٥ م / ١٤١٥ هـ).
- (١٤) أما قول الإمام مالك رحمه الله تعالى، فهو ثابت في كتب الملكية، وقد ذكره غير واحد من علماء الحديث. وجاء بالفاظ عدة. أنظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ١/١٢٣.
- (١٥) أدب القاضي ١/٣٨٤، (تأليف أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي) (ت ٤٥٠ هـ)، تحقيق محيي هلال السرحان، مطبعة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م).
- (١٦) الشيخ محمد العمراوي: ندوة التعليم بالمغرب على مفترق الطرق، نشرتها مجلة البيان العدد ١٧ (ذو القعدة ١٤٢٢ هـ).
- (١٧) التربية في الإسلام، ص ٩.
- (١٨) آداب المعلمين ص ٣٥١، (مصدر سابق).
- (١٩) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (ح ٤٧٣٩).
- (٢٠) آداب المعلمين، ص ٣٥٨، (مصدر سابق).
- (٢١) المصدر السابق، ص ٣٦٠.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٨.

(٢٣) آداب المعلمين، ص ٣٦٥. قال في تفسير أباجاد: قيل: هي أسماء الشياطين ألقوها على السنة العرب في الجاهلية فكتبوها. وقيل إنها أسماء ولد سابور ملك فارس أمر العرب الذين كانوا في طاعته أن يكتبوها.

وقيل: هي ضرب من النجوم.

(٢٤) آداب المعلمين، ص ٣٥٨.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٣٥٣. ص ٣٥٧.

(٢٦) آداب المعلمين، ص ٣٥٨.

(٢٧) المصدر السابق، ص ٣٥٦.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٥٨.

(٢٩) آداب المعلمين، ص ٣٥٨.

(٣٠) أخرجه البخاري في صحيحه، باب تعليم النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل (ح ٦٨٨٠)، ومسلم في صحيحه، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (ح ٢٦٣٣).

(٣١) أخرجه البخاري في صحيحه باب عظة الإمام النساء وتعليمهن (ح ٩٨)، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة العبيد (ح ٨٨٤).

(٣٢) أخرجه الحاكم في المستدرک، ذكر الشفاء بنت عبد الله القرشية (ح ٦٨٩٠).

(٣٣) أخرجه أبو داود سننه، باب ما جاء في الرقى (ح ٣٨٨٧)، وأحمد في مسنده ٦/٣٧٢ (ح ٢٧١٤٠).

(٣٤) الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، ص ٢٨٩، (تأليف أبي الحسن علي بن محمد القابسي (ت ٤٠٣ هـ)، تحقيق الدكتور فؤاد الأهواني، ملحق بكتابه: التربية في الإسلام).

(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

(٣٧) آداب المعلمين ص ٣٦١.